اختراع المعاني عند النقاد العرب القدماء

د. حسين علي الزعبي*

الملخص

يتناول هذا البحث فكرة اختراع المعاني، وهي فكرة أصيلة في تراث العرب النقدي، ويقصد بها تلك المعاني المخترعة والتشبيهات المبتكرة عند شعراء العرب، سواء أكانوا جاهليين أم إسلاميين أم محدثين. عالج البحث هذه الفكرة بتمهيد، ذكر فيه اهتمام النقاد العرب بنقد المعنى، ثم بالإشارة إلى أنواع المعاني، والفصل بين المعنى المخترع وغيره من المعاني المتداولة، ومن ثم بتعريف الاختراع، وتخصصه بالمعاني، ثم كان جوهر البحث إذ استجلى الأحكام النقدية التي خصت اختراع المعاني وابتكار التشبيهات خلال مسار تاريخي متسلسل من ابن سلام الجمحي (231هـ) إلى ضياء الدين ابن الأثير(637هـ)، وختم البحث بأهم الرؤى النقدية التي ذهب إليها النقاد في معالجة اختراع المعاني.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

Criteria of Praise Poetry among the Ancient Arab critics

Dr. Hussein Ali Al Zu'obi[**]

Abstract

This paper deals with the idea of inventing meaning which is an original idea in the critical heritage of the Arabs. What is meant by this idea is the invented meaning and created analogies used by Arab poets, whether they belonged to Aljahelia, Islam or Modernity.

The paper deals with this idea using a preface, in which the researcher mentions the interest of the Arab critics in criticizing meaning, in referring to the types of meanings, in the separation between the invented meaning and other meanings that are in circulation, and then in defining invention and its specialization in meanings.

The researcher moves then to the essence of the research which reveals the critical rules that govern the invention of meanings and the creation of analogies through a historical chronology beginning with Ibn Salam al-Jamaji (d. 231 Hijri) to Diaa Al-Din Ibn Al-Atheer (d. 637 Hijri). The research concludes with the most critical visions that critics addressed when they dealt with the invention of meanings.

[**] Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University.

حاز عنصرا اللفظ والمعنى اهتمامَ النقاد العرب القدماء، إذ دار كثير من القضايا النقدية حول هذين العنصرين.

وقد ولّد الاهتمام بنقد المعنى في الموروث النقدي عند العرب، خلال مسيرة تطوره نشوء قضايا نقدية متعدّدة تخص المعاني، منها قضايا نقدية رئيسية، وأخرى فرعية، ومن القضايا الفرعية تفرعت فكرة قضيّة اختراع المعاني.

وللمعاني أنواع عديدة، مشتركة، ومتداولة، ومولّدة، ومخترعة مبتكرة. فصل أبو هلال العسكري بين المعنى الإبداعي المخترع وغيره من المعاني وتجلّت نظرته إلى تلك المعاني المبتدعة المخترعة، أنها تأتي على غير مثال سابق، قال: "المعاني على ضربين: ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه، أو رسومٌ قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها. وهذا الضرب ربما يقع عند الخطوب الحادثة، ويتنبّه له عند الأمور النازلة الطارئة. والآخر ما يحتذيه على مثال تقدّم ورسمٍ فرط".[1]

وعرّف ابن رشيق الاختراع، قال: "المخترع من الشعر هو: ما لم يسبق إليه قائله، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه".[2]

ثمّ ميّز بين الاختراع والإبداع، فخصّ "المعنى" بالاختراع، واللفظ بالإبداع، قال: "والفرق بين الاختراع والإبداع ـ وإن كان معناهما في العربية واحدًا ــ أن الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع، وإن كثر وتكرر، فصار الاختراع للمعنى، والإبداع للفظ"[3].

وقد تابع النقاد القدماء المعاني المخترعة منذ وقت مبكر، وأخذت قدرًا وافيًا من اهتمامهم. إذ قدّم **ابن سلام الجمحي (231هـ)** امرأ القيس على الشعراء جميعًا، " فقد سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب، واتّبعته فيها الشعراء: استيقاف صحبه، والتبكاء في الدّيار، ورقة النّسيب، وقرب المأخذ، وشبّه النساء بالظّباء والبيض، وشبّه الخيل بالعقبان والعِصيّ، وقيّد الأوابد".[4]

---

[1]- كتاب الصناعتين، العسكري: أبو هلال، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1406هـ/1986م، ص: 69.

[2]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: القيرواني، ابن رشيق، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1972م، ط4، جـ1، ص: 262.

[3] المصدر نفسه: جـ1، ص: 265.

[4]- طبقات فحول الشعراء: الجمحي، ابن سلام، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة، 1400هـ/1980م، جـ1، ص: 55؛ وانظر: الشعر والشعراء، جـ1، ص: 68.

وتميّز امرؤ القيس، إذ سبق الشعراء إلى أشياء عديدة؛ المعاني، والتشبيهات التي تمثل معنى المعنى، وبعض الخصائص الأسلوبية، فكانت السبب في تفضيله وتقديمه على الشعراء، حتى أصبح رأس طبقات فحول الشعراء.

وعدّ **الجاحظ (255هـ)** قول عنترة بن شداد في وصف الذباب معنى متفردًا مخترعًا لم يستطع أحد من الشعراء أن يأتي بمثله:

فتـــرى الـذّباب بهـا يغنّـي وحـدَه هَزِجًـا كفعـل الشـارب المترنّـــمِ

غَـرِدًا يحـكُّ ذراعَـهُ بذراعـــــه فعل المُكبّ على الزّناد الأجذمِ[5]

وقد كثرت إشارات **ابن قتيبة (276هـ)** إلى السبق في المعاني، إذ أصّل لكثير من المعاني المخترعة، وفرّق بين المعاني المخترعة التي لم يستطع أحد أن ينازع فيها، وبين تلك المعاني التي استطاع الشعراء أن يأخذوها.

ومن المعاني التي سبق إليها الشاعر، ولم يُنازع فيها، قول زهير بن أبي سلمى:

فـــإنّ الحـــقّ مقطعـــه ثـــلاثٌ يمـــين أو نفـــار أو جـــلاء

يريد أن الحقوق إنّما تصح بواحدةٍ من هذه الثلاث: يمين، أو محاكمة، أو حجة بيّنة واضحة.[6]

وقول النابغة:

فإنّـك كالليـل الـذي هـو مُدْرِكـــي وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسع[7]

---

[5] الحيوان: الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1388هـ/1969م، جـ3، ص: 312/311؛ وانظر: البيان والتبيين: الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي . القاهرة، ط4، 1395هـ/1975م، جـ3، ص: 326.

[6] . الشعر والشعراء: ابن قتيبة، دار الثقافة، بيروت . لبنان، جـ1، ص: 85/79.

[7] . المصدر نفسه: جـ1، ص: 104.

وسبق أبو نواس إلى معان في الخمر لم يأت بها غيره، كقوله في وصفها:

وخَـدينِ لـذّاتٍ مُعلّـل صاحـــــبٍ يقتات منه فكاهةً ومزاحـــــا
قال: ابغني المصباح، قلت له: اتّئد حسبي وحسبك ضَوءُها مصباحا
فسكبتُ منها في الزجاجة شربــةً كانت له حتّى الصّباح صباحــا[8]

كما كرّر قول ابن سلام في سبق امرئ القيس إلى المعاني والتشبيهات،[9]وإلى وصف عنترة للذباب، وأنّه لم ينازع فيه.[10]

ومن المعاني التي سبق إليها الشعراء، وأخذت منهم، قول المسيَّب بن علس يذكر ثَغرَ المرأة:

كـــأن طعـــم الزنجبيـــل بـــــه إذ ذقتـــــه وســـــلافةُ الخمـــــر
شـــرقًا بمـــاءِ الـــذوب أســـلمه للمبتغيـــــه معاقِـــلُ الدَّبْـــــر

أخذه الجعدي، فقال:

وكـــأنّ فـــاها بـــات مُغتبقـــا بعـد الكـرى مـن طيّـب الخمـر
شرقًـــا بمـــــاء الـــذوب أسْلمـــه بالطود أيمَنُ من قرى النَّسر[11]

ومما سبق إليه الأخطل، فأخذ منه قوله:

قـومٌ تُعَلَّـقُ أشنـــاقُ الدّيـــاتِ بـــه إذا المِئُـــونَ أمِـرَّتْ فوقـه حمـــلا

أخذه الكميت، فقال:

كـــأنّ الدِّيـــاتِ إذا عُلِّقَـــتْ مِئُـــوها بـه الشَّنـــقُ الأســـفلُ

وأشناق الدّيات: أصنافها من الحقاق والجذاع وأشباهها.[12]

---

[8] . المصدر نفسه: جـ2، ص: 692.
[9] . المصدر نفسه: جـ1، ص: 54/53.
[10] . المصدر نفسه: جـ1، ص: 174.
[11] . الشعر والشعراء: جـ1، ص: 108.
[12] – المصدر نفسه: جـ1، ص: 397.

ومما سبق إليه أرطأة بن سُهَيّة، وأُخِذَ منه قوله يصف الفرس:

كأنّ أعينها من طـول مـا جشمـت سيـرَ الهـــواجر زيتٌ في قوارير

قال غيره:

إذِ الرّكـائب مخســوفٌ نواظرُهـــا كمــا تضمّنتِ الدّهن القواريــر[13]

ومما سبق إليه بشّار قوله:

كـــأنّ مثــار النّقـع فـوق رؤوسـهم وأسيافَنـــا ليـل تهـاوى كواكبـــه

أخذه العتابي، فقال:

تبنــي سنابكهــا مـن فـوق أرؤســهم سقفًـا كواكبـه البيض المبــاتيرُ[14]

وقد ذكر ابن قتيبة معاني كثيرة سبق إليها الشعراء، وأخذت منهم.[15]

وحرص ابن قتيبة أشدَّ الحرص على أهمية السبق في المعاني الشعرية، فأصّل لها في خطابه النقدي، إذ إنّها تمثل خصوصية الانتماء لجانب من جوانب الإبداع الشعري، وهي في الوقت نفسه تشير إلى مكامن الفرادة عند الشعراء، سواء أكانت المعاني مبتكرة لم يستطع أحد أن ينتزعها، فيقول مثلها، أم مبتكرة، وانتزعها بعض الشعراء؛ وتنوع زمن الشواهد إشارة إلى أنّ ملكة إبداع المعاني تساوى بها الشعراء سواء أكانوا قدماء أم إسلاميين أو محدثين.

وكان **لابن المعتز (296هـ)** لمحات نقديّة كثيرة حول المعاني، وذهب إلى إيثار المعاني المخترعة التي لم يسبق إليها، فأبو نواس كثير البدائع.[16]

---

[13] - المصدر نفسه: جـ1، ص: 428.

[14] - المصدر نفسه، جـ2، ص: 646/645.

[15] - انظر: الشعر والشعراء: جـ1، ص: 83/82، 121، 124، 140، 143، 156، 163، 169، 202، 203، 210، 233، 245، 263، 269، 271، 302، 309، 310، 312، 327، 328، 339، 354، 365، 403؛ جـ2، ص: 476.

[16] - طبقات الشعراء: ابن المعتز، عبد الله، تح: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، ط4، 1375هـ/1956م، ص: 204.

ومما يستحسن لمسلم بن الوليد ـ وشعره كلّه ديباج حسن لا يدفعه عن ذلك أحد ـ قوله:

فـإنّي وإسـماعيل يـوم وداعـــــه لكالغمد يوم الرّوع زايله النّصـــل
فـإن أغـشَ قومًـا بعـده أو أَزُرْهُـمُ فكالوحش يُدنيها من الأَنَسِ المحل

وهذا معنى لا يتفق للشاعر مِثْلُهُ في ألف سنة.[17]

ومن بديع ما للعباس بن الأحنف وطريفه ما ليس لأحد في معناه شيء يدانيه قوله:

أُحْـرَم مـنكم بمـا أقـول وقـــد نـــال بـه العاشقون مَنْ عشقـوا
صِـــرتُ كـــأنّي ذبـــالة نُصِـــبت تضئ للنـــاس وهْي تحتـــرق[18]

وهناك ثلاثة من الشعراء" ذكروا الليل بمعان مختلفة لم يسبقوا إليها؛ النابغة حيث يقول:

فإنّـك كالليـــل الـذي هـو مُدْركـــي وإن خلتُ أنّ المنتـأى عنك واسـع

وبشار حيث يقول:

لـم يطـل ليلـي ولكـــن لـم أَنَـم ونفى عنـــي الكرى طيفٌ ألـم

وخالد بن يزيد:

رَقـدتَ ولـم تـرث للســـــاهر وليلُ المـــــــحبّ بلا آخـر[19]

وللأخيطل بَرْقوقا بيت عجيب في تشبيه المصلوب ليس لأحد مثله في قوله:

كأنّـه عاشـق قـد مـدّ بسطتـــه يـوم الفـراق إلـى توديـع مُرْتحـل
أو قـائم مـن نعـاس فيـه لوثتـه مواصـلٌ لتمطّيـه مـن الكســل[20]

---

[17] المصدر نفسه: ص: 235.
[18] طبقات الشعراء: ص: 255.
[19] المصدر نفسه: ص: 405/404.
[20] المصدر نفسه: ص: 412

قدّم ابن المعتز شواهد، تخص خلق المعاني، ووصفها(بالبدائع) و(التفرد)، وتعني النادر والعجيب والمخترع المبتكر، وأكد تنوع المعنى الواحد في الإبداع، وساوى في اختراع المعاني بين الشعراء القدماء والشعراء المحدثين؛ المشهورين وغير المشهورين، وهذا يتفق مع ميله إلى شعر الحداثة في العصر العباسي.

وعزا **الصولي (355 أو 356هـ)** اختراع المعاني إلى ما يراه الشاعر في بيئته، فمشاهد بيئة البداوة تختلف عن مشاهد البيئة المدنيّة، وما ولّدته من معانٍ جديدة، قال:" إن ألفاظ المحدثين مذ عهد بشار إلى وقتنا كالمتنقلة إلى معانٍ أبدع وألفاظ أقرب، وكلام أرقّ، وإن كان السبق للأوائل بحق الاختراع والابتداء، والطبع والاكتفاء؛ وأنّه لم تر أعينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عيانًا، كما يرى المحدثون ما وصفوه هم مشاهدة وعانوه مدةَ دهرهم من ذكر الصحارى والبَرِّ والوحش والإبل والأخبية. فهم في هذا أبدًا دون القدماء كما أنّ القدماء فيما لم يروه أبدًا دونهم".[21] ثم يؤكد ذلك إذ قال: وقد وجدْنا في شعر هؤلاء . يقصد الشعراء المحدثين . معانيَ لم يتكلم القدماء بها.[22]

وقد أقام موازنة بين إبداع أبي تمام والشعراء الذين سبقوه، معتمدًا على معيار الكثرة في تفضيل أبي تمام، قال: وكان الشعراء قبل أبي تمام يبدعون في البيت والبيتين من القصيدة، فيعتَدُّ بذلك من أجلِّ الإحسان؛ وأبو تمام أخذ نفسه وسام طبعه أن يبدع في أكثر شعره[23]. وهو يؤكد فكرته التي ذهب إليها في غير ما مكان" وليس أحد من الشعراء يعمل المعاني ويخترعها ويتّكئ على نفسه فيها أكثر من أبي تمام"[24].

وكان معيار المعاني المخترعة حاضرًا في مخيّلة **الآمدي** النقدية**(371هـ)**، ولا سيّما اختراعات المحدثين، ففي أثناء موازنته بين أبي تمام ومسلم بن الوليد في مذهب البديع قدّم مسلم بن الوليد على أبي تمام، ويعود السبب إلى "سلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه...وكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته"[25]

---

[21] أخبار أبي تمام: الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، تح: خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ص: 16.

[22] المصدر نفسه: ص: 17.

[22] المصدر نفسه: ص: 38/ 23.

[24] المصدر نفسه: ص: 53/ 100.

[25] الموازنة بين أي تمام والبحتري: الآمدي، الحسن بن بشر، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، 1363هـ/ 1944م، ص: 11.

وهو في الوقت نفسه لم ينف اختراعات أبي تمام، بل لم يقبل رأي مَنْ قلّل من كثرتها، قال: " وقد سمعت أبا علي محمد بن العلاء السجستاني يقول: إنه ليس له معنى انفرد به فاخترعه إلا ثلاثة معانٍ، وهي قوله:

تـأبى علـى التّصـريد إلا نائـــلًا إلا يكـنْ مـاءً قَرَاحًـا يُمْـــذَقِ
نـزراً كمـا اسـتكرَهْتَ عـائر نفحـةٍ من فـأرةِ المسـك الّتي لـم تُفتـقِ

وقوله:

بني مالكٍ قَد نبّهت خامل الثَّرى قبـورٌ لكُـم مستشـرقات المعـــالم
رواكدُ قِيس الكفِّ من متنـــاولٍ وفيها عُلىً لا ترتَقي بالسَّـلالم

وقوله:

وإذا أراد الله نشـــر فضيلـــــة طُوِيتْ أتاح لها لِسان حســـود
لـولا اشـتعال النَّـار فبمـا جـاورت ما كان يُعَرف طيبُ عَرْف العـودِ

ولست أرى الأمر على ما ذكره أبو عليّ، بل أرى أنّ له ـ على كثرة مآخذه من أشعار الناس ومعانيهم ـ مخترعات كثيرةً، وبدائع مشهورة، وأنا أذكرها عند ذكر محاسنه إن شاء الله تعالى".[26]

وهو يؤكد ما وعد به في باب فضل أبي تمام، إذ " وجد أهل النَّصفة من أصحاب البحتري ومَنْ يقدّم مطبوع الشعر دون متكلفه لا يدفعون أبا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها والإبداع والإغراب فيها، والاستنباط لها، ويقولون: إنه وإن اختلّ في بعض ما يورده منها فإن الذي يوجد فيها من النادر المستحسن أكثر مما يوجد من السخيف المسترذل، وإنّ اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه، على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة".[27]

[26] الموازنة: ص123/124.

[27] المصدر نفسه: ص: 378.

أصدر الآمدي في النص السابق على لسان أنصار البحتري موقفًا نقديًا يشي باهتمام أبي تمام بمعانيه سواء أكانت مستنبطة مولّدة أم مخترعة نادرة، وعدَّ الإبداع والنادر سمة فنيّة من صفات شعره، وهي صفة تتسم بالإيجابية، لأنها ملكة من ملكات الإبداع عند أبي تمام.

ويمضي الآمدي إلى الإشادة بإبداع أبي تمام، فيقول: "وهذا أعدل كلام سمعته فيه، وإذا كان هذا هكذا فقد سلّموا له الشيء الذي هو ضالة الشعراء، وطلبتهم، وهو لطيف المعاني، وبهذه الخلة دون ما سواها فُضِّل امرؤ القيس؛ لأنّ الذي في شعره من دقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة فوق ما في أشعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام...ولولا لطيف المعاني واجتهاد امرئ القيس فيها وإقباله عليها لما تقدم على غيره، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه؛ إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ولا ألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا في تقديمه بأن قالوا: هو أول من شبه الخيل بالعِصِيِّ، وذكر الوحش والطير، وأول من "قيد الأوابد" وأول من قال كذا، وقال كذا، فهل هذا التقديم إلا لأجل معانيه؟"[28]

استحوذ إبداع المعاني في هذا النص النقدي على تفكير الآمدي، إذ فضل جدة المعاني وأصالتها على الجزالة والفصاحة، واستدل على ذلك بتقديم امرئ القيس على غيره من الشعراء، وحدّد المعيار الذي بنى عليه حكمه، وهو اختراع المعاني.

ورأى الآمدي أنّ هذا المعيار كثير في شعر أبي تمام، حتى غدت بدائعه مشهورة ومحاسنه متداولة.

وقدم مثالين صوّر فيهما إبداع أبي تمام، وهما قوله:

وإذا أراد الله نشـــــــر فضـــيلةٍ طُويت أتاح لها لســـان حســـود

وقوله:

هـــي البـــدر يغنيهـــا تـــودُّدُ وجههـــا إلى كلّ من لاقت، وإن لم تودِّدِ[29]

وهكذا نرى أنّ الآمدي منح المعاني المخترعة مزيةً خاصة، إذ تشكل آلية أساسية من آليات الإبداع، وبها يتفوق الشاعر المبدع على غيره من الشعراء.

---

[28] - الموازنة: ص: 378/379.

[29] - المصدر نفسه: ص:379.

وفي أثناء المحاورات النقدية التي دارت بين **المتنبي والحاتمي (388هـ)** تحدّث كلاهما عن اختراع المعاني، وقد ذكر المتنبي بعض اختراعات امرئ القيس والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى والأعشى، وممّا قاله في امرئ القيس: هو إمام الشعراء، والفاتق لهم أكمام المعاني وربّ القصب والسبق إلى كل لفظ مهذب، ومعنى مخترع، وتشبيه مبتكر.[30]

وهو في الوقت نفسه ينفي اختراع المعاني عن كلّ من أبي تمام والبحتري، إذ قال مخاطبًا الحاتمي: فهل تجد لأبي تمامكم هذا أو بحتريكم معنىً اخترعاه؟ فقال الحاتمي: وهل تستوفي اختراعاتهما مذاكرة، أو يأتي على جزء واحد منها البحث والمناقشة ؟ فقال المتنبي: هلمَّ معنىً واحدًا ولك الخَصْلُ.[31]

فيجيبه الحاتمي قائلًا: من اختراعات أبي تمام التي وقع إجماع الرواة عليها قوله:

تـأبى علـى التّصـريد إلا نائـــــلًا إلا يكـن محضًـا قَراحًـا يُمـــذَقِ

عمـدًا كمـا اسـتكرهت عـائِرَ نفحـةٍ من فـارة المسك التـي لـم تفتـقِ[32]

ويروي الحاتمي معاني عديدة، اخترعها أبو تمام، تدور في فلك الحكمة، والمديح، ووصف الرماح والسيوف، والشيب، وصفات الإبل.[33]

كما روى الحاتمي اختراعات البحتري، ومنها قوله:

ولمّـا التقينـا والنَقـا موعـدٌ لنـــــا تَعَجّبَ رائـي الـدُّرّ حسـنًا ولاقِطُـهْ

فمِـنْ لؤلـؤٍ تبديـه عنـد ابتسـامها ومن لؤلؤٍ عند الحديث تُساقِطُهْ[34]

إنّ هذه المحاورة النقدية تدلّ دلالة واضحة على أهمية اختراع المعاني عند كلٍّ من المبدع الشاعر والناقد.

---

[30] - الرسالة الموضحة: الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن، تح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، 1385هـ/1965م، ص: 78 ،79 80 ،81، 82، 83، 84.

[31] . المصدر نفسه: ص: 186.

[32] . المصدر نفسه: ص: 187.

[33] . المصدر نفسه: ص: 187/188/189/190/191.

[34] . الرسالة الموضحة: ص: 193. وانظر: فيما رواه الحاتمي من اختراعات البحتري، ص: 192/194.

فالمتنبي وإن رفض اختراعات أبي تمام والبحتري لأسباب تتعلق بهذه المحاورة، إذ اتهمه الحاتمي بالسرقة من هذين الشاعرين. فهو يعترف باختراعات رؤوس فحول الشعراء، فامرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى هم شعراء مخترعون على الرّغم من إشارته إلى التفاوت الشعري في أشعارهم.

واتكأ الحاتمي على إجماع الرواة في أحكامه، إذ أكد من خلالها اختراع المعاني عند كلٍّ من أبي تمام والبحتري، والذي يلفت الانتباه كثرة الشواهد التي ذكرها، ممّا يدل على أهمية هذا المقياس في مخيلته النقدية.

وأشار **علي بن عبد العزيز الجرجاني(392هـ)** إلى الاختراع والابتكار، وذلك في أثناء مناقشته المعاني المتداولة، قال: ثم اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع، فوجدت منه مستفيضًا متداولًا متناقلا... وإن كان الأصل فيه لمن انفرد له، وأوله للذي سبق إليه.[35]

وقد يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشعر، فتشترك الجماعة في الشيء المتداول، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب، أو ترتيب يستحسن، أو تأكيد يوضع موضعه، أو زيادة اهتدى لها دون غيرها؛ فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع، كما قال لبيد:

وجلا السُّيولُ عن الطُّلول كأنّها زبرٌ تُجِدُّ متونها أقلامها

فأدى إليك المعنى الذي تداولته الشعراء، قال امرؤ القيس:

لمن طللٌ أبصرْته فشجاني كخط زبورٍ في عسيبِ يماني

وقال حاتم:

أتعرف أطلالًا ونؤيًا مهدَّما كخطّك في رقٍّ كِتابا منمنما

وقال الهذلي:

عرفت الديار كرسم الكتا بِ يزبره الكاتب الحميري

وأمثال ذلك مما لا يحصى كثرة، ولا يخفى شهرة، وبين بيت لبيد وبينهما ما تراه من الفضل.[36]

---

[35]- الوساطة بين المتنبي وخصومه: الجرجاني، علي بن عبد العزيز، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1386هـ/1966م، ص: 184.

[36] الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 187/186.

وأحسب أن الجرجاني قد خلط بين المعاني المبتكرة والمولّدة، فقول لبيد من المعاني المولّدة، كما أعتقد أنّ الجرجاني ينكر الاختراع: إذ قال: " ومتى أجهد أحدنا نفسه، وأعمل فكره، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنّه مبتدعًا، ونَظمِ بيت يحسبه فردًا مخترعًا، ثم تصفّح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه، أو يجد له مثالًا يغضُّ من حسنه".[37]

وكان **ابن رشيق القيرواني (456هـ)** من أكثر النقاد اهتمامًا بمصطلح الاختراع، إذ عرفه، قال: المخترع من الشعر هو: ما لم يسبق إليه قائله، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه.[38]

وميّز بين الاختراع والابتداع، فالاختراع يخص المعنى، والابتداع يخص اللفظ، فإذا كان الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها، فإنّ الإبداع يأتي في تكرار وإعادة هذا المعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله، فصار الاختراع للمعنى، والإبداع للفظ.[39]

ودلّل على المعاني المخترعة بأمثلة متعددة، منها قول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها سموَّ حَباب الماء حالًا على حال

فإنّه أول من طرق هذا المعنى وابتكره، وسلم الشعراء إليه، فلم ينازعه أحد إياه، وقوله:

كأنّ قلوب الطّير رطبًا ويابسًا لدى وكْرِها العُنّابُ والحشف البالي

وله اختراعات كثيرة يضيق عنها الموضع، وهو أول الناس اختراعًا في الشعر.[40]

ومن الاختراع قولُ طرفة:

ولولا ثلاث هُنَّ من لذّة الفتى وجَدِّك لم أحفل متى قام عُوَّدي[41]

فمنهنَّ سبق العاذلات بِشَرْبَةٍ كُميتٍ متى ما تعلَ بالماءِ تُزبِدِ[42]

وكَرّي إذا نادى المضاف محنَّبًا كسيد الغضا ذِي الطيخة المتورد[43]

وتقصير يوم الدَّجْن والدَّجن معجبٌ ببهكنةٍ تحتَ الطِّراف المعمَّد

---

[37] المصدر نفسه: ص: 315.

[38] العمدة :جـ1، ص: 262.

[39] العمدة: جـ1، ص: 265؛ وانظر: اختراعات امرئ القيس، قراصنة الذهب، القيرواني، ابن رشيق، تح: الشاذلي بو يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، 1972م، ص: 21.

[40] المصدر نفسه: جـ1، ص: 262.

[41] يروى: هُنّ من(عيشة) الفتى؛ انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص: 82.

[42] يروى: فمنهن (سبقي) العاذلات؛ انظر: المصدر نفسه، ص: 83.

[43]– يروى: كسيد الغضا (نَبَّهتَهُ) انظر: المصدر نفسه، ص: 83.

وقوله يصف السفينة في جريها:

يشقُّ حباب الماء حيزومُها بها كما قَسَم التُّربَ المفائل باليدِ

وله أيضًا اختراعات أكثرها من هذه القصيدة.[44]

وقال نابغة بني ذبيان:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقوله أيضًا من الاختراعات:

لو أنّها عرضت لأشمط راهبٍ عَبَدَ الإله صَرورةٍ مُتَعَبِّدِ

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولَخَالَه رشدًا وإنْ لم يَرْشُدِ

وما زالت الشعراء تخترع إلى عصرنا الحاضر.[45]

ولم يكتف ابن رشيق بهذه الشواهد، كما صرح من قبل، وإنّما ذكر كثيرًا من التشبيهات العقم التي لم يسبق أصحابها إليها، ومن ذلك قول عنترة يصف ذباب الروض،[46] وقول الحطيئة:" يصف لغام ناقته:

ترى بين لحييها إذا ما ترغَّمت لغامًا كبيت العنكبوت الممدَّدِ

وعدي بن الرّقاع يصف قرن ظبي:

تزجي أغنّ كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدّواة مدَادها"[47]

ومن هذه التشبيهات العقم؛ (قول الراعي يصف جعد الرأس، وقول بشر بن أبي خازم يصف عروق الأرطى وقد كشفها ثور، وقول الطِّر مّاح في صفة الظَّليم، وقول ذي الرّمّة في صفة الليل، وقول مضرِّس بن رِبْعي في صفة رأس الحمامة).[48]

---

[44] العمدة، جـ1، ص: 263.

[45] المصدر نفسه: جـ1، ص: 263.

[46] المصدر نفسه: جـ1، ص: 297/296.

[47] المصدر نفسه: جـ1، ص: 297.

[48] – العمدة: جـ1، ص: 298/297.

وهو لم يسلم بما ذهب إليه بعض النقاد في إطلاق صفة العقم على بعض التشبيهات، ومن ذلك قول النابغة في صفة النسور:

تراهنَّ خلف القوم خزرًا عيونها جلوسَ الشيوخ في ثياب المرانب

وهذا التشبيه عندهم عقيم، إلا أني أقول: إنه من قول طرفة يصف عقابًا:

وعجزاء دقّت بالجناح كأنّها مع الصُّبح شيخٌ في بجادٍ مقنع"[49]

وكذلك كانت اختراعات المحدثين حاضرة في ذاكرة ابن رشيق، فعقد بابًا لما جاء من المعاني المحدثة، ذكر فيه ما انفرد به المحدثون من معان مخترعة، وخصّ بشار بن برد وأبا نواس وابن الرومي بهذه الاختراعات.

ومن الاختراعات قول بشار بن برد:

يا قوم أذني لبعض الحيِّ عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا: بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم الأذن كالعين تُوفي القلبَ ما كانا

ويرى أنّ اختراعاته كثيرة، واشتهاره بذلك يغني عن الإنشاد له.[50]

ومنها قول أبي نواس، وقد ذكر المبرّد أنه لم يسبق إليه، وهو:

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المنام إلا شميما

نالني بالملام فيها إمام لا أرى لي خلافه مستقيما

الأبيات[51]

وأشار إلى أنّ معاني أبي نواس واختراعاته كثيرة.[52]

ويرى ابن رشيق أن أكثر الشعراء اختراعًا ابن الرومي، ويذكر عدة شواهد؛ منها:

عيني لعينك حين تنظر مقتلُ لكنّ لحظك سهم حتف مرسل

ومن العجائب أن معنى واحدًا هو منك سهمٌ وَهْوَ مني مقتل[53]

---

[49] المصدر نفسه: جـ1، ص: 298.

[50] المصدر نفسه: جـ2، ص: 242.

[50] العمدة: جـ2، ص: 243/242؛ وانظر الصفحة نفسها، هناك شواهد أخرى.

[52] المصدر نفسه: جـ2، ص: 244.

[53] المصدر نفسه: جـ2، ص: 244.

وأشار ابن شرف **القيرواني(460هـ)** إلى ما ذهب إليه ابن رشيق في اختراعات ابن الرومي، إذ عدّه شجرة الاختراع وثمرة الإبداع.[54]

إنّ ما ذكره ابن رشيق يوحي بأفكار نقدية عديدة؛ تأصيل مصطلح اختراع المعاني، فهو معنى مبتكر غير مسبوق، وكذلك غير مقلّد، اختيار مجموعة من النماذج لم تحّول إلى معنى آخر، ديمومة اختراع المعاني وعدم توقفها عند أيّ لحظة تاريخية محددة، وإنما هي مستمرة باستمرار الزمن، وأظهر ما غير ذلك تخصيص باب لمعاني المحدثين المخترعة، وقوله: إن أكثر الشعراء اختراعًا ابن الرومي.

ومما أشار إليه **الكندي (613هـ)** في أثناء شرحه شعر المتنبي بعض المعاني التي سبق إليها، ومنها قوله:

فـإن تفـق الأنـام وأنـت منـهم فإنّ المسك بعض دم الغـزال[55]

وكذلك قوله:

وألقـى الشـرق منهـا فـي ثيـابي دنـانيرًا تفـرّ مـن البنـانِ[56]

وعدّ المعنيين من المعاني التي لم يسبق أحد من الشعراء المتنبي إليهما البتة.

وأما **ضياء الدين بن الأثير (637هـ)** فقد خص أبا تمام والمتنبي بالابتكار والإبداع، قال: " أمّا أبو تمام فإنّه ربّ المعاني وصيقل ألباب وأذهان شهد له بكل معنى مبتكر، لم يمش فيه على أثر، فهو غير مدافع عن مقام الإغراب، الذي برز فيه على الأضراب، وقد مارست من الشعر كل أوّل وأخير، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير".[57]

وأشار إلى تفرد أبي الطيب المتنبي بالإبداع في وصف المعارك، قال: "واختص بالإبداع في وصف المعارك... ولا شكّ أنّه كان يشهد الحروب مع سيف الدّولة بن

---

[54]- رسائل الانتقاد: القيرواني، ابن شرف، تح: حسني حسن عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1404هـ/1983م، ص: 33.

[55]– الصفوة في معاني شعر المتنبي وشرحه: أبي اليمن تاج الدين زيد بن الحسن الكندي، دراسة وتحقيق: د. عبدالله بن صالح الفلاح، النادي الأدبي، الرياض، 2009م، جـ1، ص: 528/114.

[56]- المصدر نفسه: 115، جـ2، ص: 498.

[57]- المثل السائر: في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ضياء الدين، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، جـ2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي . مصر، 1358هـ/1939م، ص: 369.

حمدان فيصف لسانه ما أدّى إليه عيانه... ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى، وجدته أقسامًا خمسة: خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيرها".[58]وهو يقصد بهذا الخمس وصفه للمعارك.

الجديد في نقد ابن الأثير أنه تجاوز الحكم على المعنى المخترع أو التشبيه المستطرف الجديد في البيت المفرد، وإنما ذهب إلى الحكم الكلي على شعر أبي تمام، إذ رآه مبتكرًا في شعره كلّه، كما ذهب إلى وصف خمس شعر المتنبي بالتفرد والابتكار، وصرح أنّ هذه الحكمين صدرا عن تجربة في قراءة شعر الشاعرين.

نتائج البحث:

ـ رصد النقاد القدماء حركة اختراع المعاني عند الشعراء الجاهليين والإسلاميين والمحدثين العباسيين، ولم يقصروا هذه الميزة على الشعراء المشهورين، بل ذكر بعضهم المغمورين كالأخيطل.

ـ فصل النقاد بين المعاني المتداولة والمعاني المخترعة، وقصدوا بالمخترعة تلك المعاني المخترعة والتشبيهات المبتكرة التي لم يسبق إليها الشعراء، ولم تأت على مثال سابق.

ـ ربط بعض النقاد بين المعاني المخترعة والبيئة المرئية، وما تولّده من صور، وهذا ما أشار إليه الصولي في حكمه على بعض شعر أبي تمام، وابن الأثير في حكمه على بعض شعر المتنبي.

ـ أصّل ابن رشيق مصطلح (الاختراع)، إذ عرّفه، وميّز بينه وبين الإبداع.

ـ تراوحت الأحكام النقدية بين الحكم على المعنى المخترع في البيت المفرد إلى الحكم الكلي على شعر شاعر، أو على غرض من أغراضه، وهذا ما بدا عند كلّ من الصولي في حكمه على شعر أبي تمام وابن الأثير في حكمه على شعر أبي تمام وشعر المتنبي، وسبقهم ابن سلام فيما رواه عن الذين قدّموا امرأ القيس. وأعتقد أن الأحكام الكليّة التي أطلقها الصولي وابن الأثير يعوزها الدّقة، وفيهما مبالغة لأنّ الذي عرف عن أبي تمام عند أكثر النقاد أنّه شاعر مولّد، وهنالك فرق بين الاختراع والتوليد.

ـ لم يبرز النقاد خصوصية تلك المعاني المخترعة والتشبيهات المبتكرة، وإنما استشهدوا بها لسبقها وفرادتها، إذ شكلت في أذهانهم آلية من آليات الإبداع، ومعيارًا نقديًا حكموا من خلاله على استحسان شعر الشاعر وتفضيله.

المصادر والمراجع:

[58] المصدر نفسه: جـ2، ص: 370/369.

1. أخبار أبي تمام: الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، تح: خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.
2. البيان والتبيين: الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1395هـ/1975م.
3. الحيوان: الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، ط3، دار إحياء التراث، بيروت، 1388هـ/1969م.
4. الرسالة الموضحة: الحاتمي أبو علي محمد بن الحسن، تح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، 1385هـ/1965م.
5. رسائل الانتقاد: القيرواني، ابن شرف، تح: حسني حسن عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1404هـ/1983م.
6. شرح المعلقات السبع: الزوزني، دار الجيل، بيروت، لبنان.
7. الشعر والشعراء: ابن قتيبة، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
8. الصفوة في معاني شعر المتنبي وشرحه: أبي اليمن تاج الدين زيد بن الحسن الكندي، دراسة وتحقيق: د. عبدالله بن صالح الفلاح، النادي الأدبي، الرياض، 2009م.
9. طبقات الشعراء: ابن المعتز، عبد الله، تح: عبد الستار أحمد فراج، ط4، دار المعارف، مصر، 1375هـ/1956م.
10. طبقات فحول الشعراء: الجمحي، ابن سلام، تح: أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1400هـ/1980م.
11. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: القيرواني، ابن رشيق، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1972م.
12. قراضة الذهب: القيرواني، ابن رشيق، تح: الشاذلي بو يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، 1972م.
13. كتاب الصناعتين العسكري: أبو هلال، تح: علي محمد البجاوي ومجمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1406هـ/1986م.
14. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، ضياء الدين، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1358هـ/1939م.

15. الموازنة بين أبي تمام والبحتري: الآمدي، الحسن بن بشر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، 1363هـ/1944م.
16. الوساطة بين المتنبي وخصومه: الجرجاني، علي بن عبد العزيز، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1386هـ/1966م.